اسم المصدر: الحياة

التاريـــخ: 23-11-2009 رقم العـدد: 17034 رقم الصفحة: 9 مسلسـل: 54 رقم القصاصة: 1

الفلسطينيون ومسلسل الفرص الضائعة

عرفان نظام الدين *

● كنا نمنّي النفس بأن ينتصر العقل وتسود الحكمة ويحقق الفلسطينيون حلم الأجيال وأمل كل عربي في إتمام المصالحة ووضع حد لهذا العبث المتمادي بالقضية الفلسطينية وبمصير الشعب الفلسطيني بصورة خاصة وبمصير العرب كلهم بشكل خاص.

لكن رياح القيادات الفلسطينية لم ترغب بأن تجري كما تشتهي سفن الأمة وضاعت فرصة تاريخية أخرى لتنضم الى مثيلاتها من الفرص الضائعة التي أدمن من بيده الحل والربط على التسبب بها على رغم كل الحجج والذرائع الواهية التي توزع الاتهامات وتتراشق بها في تحديد المسؤولية عن سلسلة الأخطاء والخطايا المرتكبة على مدى أكثر من نصف قرن.

نعم إنه مسلسل الفرص الضائعة التي يتحمل مسؤولية الإمعان في خوض غمارها الخائب الفلسطينيون قبل غيرهم: القيادات على اختلاف اتجاهاتها وانتماءاتها وتبريراتها بسبب تقاعسها وتقصيرها ودخولها متاهات الانقسام والتشرذم والصراعات والخلافات والانشقاقات الداخلية بدلاً من توجيه كل جهودها ونضالها ضد العدو المشترك.

وجماهير الشعب الفلسطيني في الداخل وفي غياهب الشتات ومخيمات العار والبؤس لسكوتها على الضيم والظلم يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وخضوعها وقبولها بالواقع الأليم واتباعها القيادات المتشرذمة والفصائل المتناحرة ومشاركتها في الصراعات والحروب عبر استخدامها كأدوات رخيصة وفي كثير من الأحيان في محرقة العصر المزدوجة. هذه المحرقة فرعها فلسطيني بحت وفرعها الآخر إسرائيلي ظالم يتبع كل وسائل القتل والدمار والتمييز العنصري والمذابح والقمع وجرائم الحرب وانتهاكات حرمة المقدسات وحقوق الإنسان.

وهنا قد يستغرب البعض هذه الاتهامات، وقد يستنكر البعض وضع اللوم كله على الجانب الفلسطيني ويشير البعض الآخر بيده الى ألف سبب وسبب ومئة جهة وجهة تقف وراء ما يتعرض له الفلسطينيون وما آلت إليه قضيتهم المقدسة وما لحق بهم من ظلم وتشريد وقتل وحرمان من أدنى حقوقهم كشعب وكبشر مثلهم مثل شعوب العالم.

ولا يحق لأحد أن ينكر هذا، ولا أن يعفي العرب من مسؤولياتهم ويبرئ القيادات والقمم من دم هذا الشعب. كما لا يمكن لأحد أن يشارك في اتهام دول العالم بشرقها وغربها خلال الحرب الباردة وبعدها حتى يومنا هذا بالمشاركة في تدبير هذه الجريمة التاريخية بحق فلسطين وشعبها والمسؤولية عن التخطيط والتحريض والتنفيذ ثم عن دعم إسرائيل والانحياز لها في كل المراحل حتى في أشدها سوءاً وسواداً كما جرى أخيراً تجاه تقرير غولدستون حول انتهاكات إسرائيل خلال حربها على قطاع غزة وارتكابها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

فالتقصير العربي واضح وصريح ولا يحتاج الى الدليل أو الإثبات او التبرير والدفاع والتبرئة، والمساهمة في إضعاف القضية والإهمال والتواكل والتخاذل وشق الصف الفلسطيني وتأجيج الصراع بين الفصائل لا يمكن إنكارها ونفيها او التخفيف من وقعها والتقليل من أضرارها. والتآمر الدولي ثابت وموثق ولا يحتاج الى براهين. أما المكر الصهيوني والتآمر والظلم والممارسات القمعية فالمسؤولية المباشرة عن كل الجرائم المرتكبة تقع على عاتق اسرائيل بكل القوانين والقيم والحسابات ومبادئ الشرعية الدولية ومعايير الحروب والاحتلال ومواثيق حقوق الإنسان.

وعلى رغم كل هذا هل يحق لأحد أن يبرئ نفسه ويغسل يده من أدران ما يجرى على الساحة الفلسطينية؟

ألم يحن الوقت ليقف كل فلسطيني من القاعدة الى القمة ليحاسب نفسه عن التقصير ويسألها عن مسؤولية أصحاب القضية عن مسيرة الانكسارات والهزائم والانحدار و «الفرجة» على الجماهير وهي تذبح من الوريد الى الوريد، والأرض وهي تضيع قطعة تلو القطعة، وكل حبة تراب فيها مقدسة ومغمسة بدماء الشهداء الأبرار، والمقدسات وهي تنتهك كل يوم والمسجد الأقصى المبارك تدنس حرماته يوماً بعد يوم ويتعرض للتهديد المتواصل بهدمه لبناء الهيكل المزعوم؟

وبغض النظر عن العوامل الأخيرة وهي كثيرة ومتعددة وفاعلة، نبقى مع العامل الفلسطيني لنسأل: كم من الفرص التي أهدرت؟ وكم من الأحداث التي أسهمت في فتح الأبواب أمام النصر وتحقيق الأهداف تم إغلاقها بعمل أخرق أو بموقف خاطئ أو بقرار فردي أو بانقسام وخلاف وصراع أدخل فيه، أو حرض عليه هذا الطرف العربي والأجنبي أو... ذاك؟

في النضال المسلح أتيح المجال للثورة الفلسطينية لتمارسه بدعم عربي وتأييد شعبي عارم... وعندما تم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني أضاع المناضلون البوصلة ووجهوا السلاح الى صدور بعضهم بعضاً وارتضوا أن يكونوا جزءاً من الصراعات العربية، وأن يكونوا أدوات في أيادي أنظمة متناحرة حتى في عز أيام الحرب الباردة والصراع بين الشيوعية والرأسمالية وبين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشرقي المنضوي تحت اللواء السوفياتي، ونجمت عن كل ذلك حروب داخلية وانشقاقات وحركات «تصحيحية»

اسم المصدر: الحياة

التاريـــخ: 23-11-2009 رقم العـدد: 17034 رقم الصفحة: 9 مسلسـل: 54 رقم القصاصة: 2

أسهمت في شرذمة المنظمة الى فصائل متناحرة لدرجة أن حركة «فتح»، كبرى المنظمات وأعرقها نضالاً وأكثرها شـعبية، تشظت الى خمس حركات و «الجبهة الشعبية» قسّـمت الى جبهات تحمل أسماء متشـابهة وتوجهات متباينة.

ومن رحـم هذا الصـراع المؤذي توالـدت الحروب والانتصارات الوهمية والانكسارات المتوالية وضاعت الفرصـة تلو الفرصة بعد فتـح جبهة الأردن ثم إغلاقها نتيجـة لماسـي أيلول الأسـود فـي معـارك ١٩٧٠، ثم شهدنا فتح جبهة لبنان وإغلاقها نتيجة للحرب الأهلية اللبنانية وترداد مقولة: تحرير فلسـطين يمر عبر بلدة جونيه اللبنانية. وكانت النتيجة تدمير المظلة اللبنانية الحاضنـة الفلسـطينيين وإزهـاق أرواح الألـوف من الفلسطينيين واللبنانيين وتوجت بالاجتياح الإسرائيلي للبنـان والخـروج الفلسـطيني عبر مرفأ بيـروت الى المجهول ومن ثم وقوع مذابح صبرا وشاتيلا والمجازر الأخرى التي ارتكبها العدو الغاشم.

وفي مسار السلام حانت فرص كثيرة لم يتم استغلال معظمهـا لتحقيـق الأهداف المرجوة ولـو في حدودها الدنيـا المعقولة، أو تم الخوض في غمارها بأسـاليب ملتوية وخاطئة فضاعت مثلها مثل فرص ذهبية رفضت في حينها ثم تبين خطأ القرارات المتسرعة أو المنقادة للغرائز وجـرت محاولات العودة اليهـا لكن بعد فوات الأوان. وحتى اتفاقيات أوسلو، على رغم المآخذ الكثيرة والانتقادات المحقة والثغـرات الفاضحة، كان يمكن أن يبنـى عليها الكثير من الإيجابيـات وتطويرها لتحقيق أكبر قدر من المكاسـب والإنجازات وقطع الطريق على إسرائيل التي عملت على إفراغها من معانيها ومبانيها وتحويلهـا الى حبر على ورق لا تسـاوي قيمة ما أهدر عليها.

وهـذا ليـس أوان الحسـاب ولا مجال جلـد الذات وحصر الاتهام بجهة واحدة، مع اعترافنا بأن المؤامرة الصهيونيـة كبيـرة ومتعـددة الوجـوه والوسـائل والإمكانات الوحشية والمتوحشة، لكن المجال للحديث عن الفرصـة التاريخيـة المتاحة لتحقيـق المصالحة الوطنية الفلسـطينية وإنهاء هذا الانقسام المخزي في الصف الفلسـطيني الذي تحول الى جرح نازف في قلب كل فلسطيني وكل إنسان عربي حر ومؤمن بقضايا أمته وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

فمـا جرى لا يمكن تبريره ولا الدفاع عنه مهما كانت طروحـات ومبررات أطراف النـزاع، والمضي في غي لا رد عليه سـوى الإنكار والاسـتنكار والرفض والشجب. فكيف لأي عاقل أن يجد أي تبرير لما جرى في غزة ولما يتعرض له شعبها الأبي العريق في النضال فيما العدو يعربد ويصـول ويجول ويهدد ويهوّد أرض فلسـطين الطاهرة شبراً شبراً وحياً حياً ومدينة مدينة؟

ولا حاجة هنا لتكرار شـرح مجريـات الأحوال التي آلت إليها القضية الفلسطينية، فكل التفاصيل معروفة ومكشـوفة، ولكن اللوم كل اللوم على من يضيع الفرص لرأب الصدع وتصحيح الأخطاء ومسح الخطايا وكفكفة الدموع ومعالجة الجراح.

الفرصـة الذهبية الأولى كانت فـي أطهر مكان على الأرض، من مكـة المكرمة، عندما جمع خـادم الحرمين الشـريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز قيادات حركتي «فتح» و «حماس» وشـجعها على المصالحة وناشـدها باسـم إخوة الدم والدين والحق والعروبة وحلّفها بالله العلـي القديـر أن لا تخون الأمانة فلبت هـذه القيادات النـداء ووقعـت وثيقـة المصالحـة فتنفس العـرب الصعداء... إلا أنه لم تكد تمضي ساعات قليلة حتى جاء من نقض العهد ونسـف المصالحة قبـل أن يجف حبر وثيقتهـا وكان ما كان من انقلاب غزة والمعارك الدامية والاتهامات المخزية وفصل غزة عن الضفة الغربية فيما العدو يتفرج شـامتاً لينقـض بعدها على غزة في حرب وحشية لم يشهد العالم مثيلاً لها.

وجاءت الفرصة الثانية عبر الوساطة المصرية التي بـذل الرئيس حسـني مبارك ومعاونوه جهـوداً جبارة لإتمامها على رغم العوائق والعقبات إلى أن نجحوا في إعداد وثيقـة تاريخية كان من المقـرر أن يتم الاحتفال بالتوقيـع عليها في أواخر شـهر ايلول (سـبتمبر) في القاهرة.

وجـاءت واقعـة تقريـر غولدسـتون، وتفاصيلهـا معروفة، لتسـهم في نسـف ما تم التوافق عليه. وهكذا ضاعـت فرصة أخرى ضمن مسلسـل إضاعـة الفرص واتسـع الشـرخ وزاد المأزق تعقيداً خاصة عندما تمت الدعوة الى انتخابات تشـريعية ورئاسية في ظل سلطة تفقـد شـرعيتها: حكومة تصريف أعمال لـم تنل الثقة، وحكومـة مقالـة تنتهي ولايتها خلال أسـابيع ورئيس انتهت صلاحيته، ومجلس تشـريعي معطل وضياع في ضياع وانتخابات حدد الرئيس محمود عباس موعداً لها في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ثم تبيّن اسـتحالة الالتزام بهذا الموعد ما يعني ان الفراغ الدستوري سيكون سيد الموقف.

وعلـى رغم كل ذلك علينـا أن لا نفقد الأمل وأن ندعو إلـى تكاتف الجهـود لرأب الصدع وتسـارع الخطوات وتكثيف الجهود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وإعادة الأطراف الفلسـطينية إلى جادة الصواب رحمة بالشعب وتلبية لصرخـات أطفالـه وأنين رجاله ونسـائه لعـل ذرة من ضمير تنتفض وتتحقق المصالحة ويعاد توحيد الضفة والقطاع وتسـتغل هـذه الفرصة قبل فـوات الأوان لأن ضياعها هذه المرة سيكون ثمنه فادحاً وسيخلف دماراً بلا حدود ولا سقف.

---

* كاتب عربي